جامعة سيدي محمد بن عبد الله

كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز فاس

شعبة علم النفس

المادة : تيارات علم النفس الكبرى

الفصل : [redacted]

الأستاذ : حسن لعبوب

2 :تيار التحليل النفسي

ان الإنتاج النظري الحاسم الذي كان وراء قيام التحليل النفسي هو اكتشاف قارة جديدة غير معروفة داخل السيكولوجيا و هي منطقة اللاشعور L'inconxient هذا الموضوع الجديد الذي اكتشفه الطبيب النمساوي الشهير سيجموند فرويد هو الذي سيصبح موضوع العلم الجديد الذي يقترن باسمه، كإحدى الثورات الفكرية الثلاثة التي هزت الثقافة الأوروبية وهي : الثورة الكوبرينيكية، والثورة الداروينية، والثورة الفرودية. إذن ما هو اللاشعور؟ وماهي علاقته بالشعور؟

لايمكن فهم اللاشعور إلا في علاقته بالجهاز النفسي عند الإنسان ككل، وإذا كان الإنسان يتميز بسلوكه، باعتباره كائنا موجودا في هذا السلوك إذ بواسطته تتميز الشخصية، فإن هذا السلوك لايمثل الشعور فيه إلا نسبة ضئيلة في حين يستأثر اللاشعور بالقسم الأوفر يقول فرويد : "إن ما يميز العناصر النفسية هو الاختفاء السريع لحالتها الشعورية. وعندما يكون التمثل شعوريا في لحظة معينة فلن يظل كذلك في اللحظة اللاحقة، ولكنه يمكن أن يعود شعوريا في شروط معينة سهلة التحقيق. أما في المسافة الفاصلة بين الشعور واللاشعور فنحن نجهل ماهي الحالة التي يكون عليها التمثل، ويجوز أن نقول إنه في حالة كمون، ونعني بذلك أنه قادر على أن يصبح شعوريا في أية لحظة".Essai de psychanalyse p :180. ولكن لماذا لا يتحول اللاشعور إلى شعور؟ لماذا تظل هناك حالات نفسية لايعيها الإنسان؟

إن الجواب الذي يقدمه التحليل النفسي هو أن هناك عائقا يقف أمام الحالات اللاشعورية ولا يسمح لها بالبروز إلى سطح الشعور "إن الحالة التي توجد فيها هذه التمثلات قبل أن تصل إلى الشعور قد أطلقنا عليه اسم الكبت، وبالنسبة للقوة التي تنتج وتحافظ على الكبت فإننا نحس بها أثناء عملية العلاج على شكل مقاومة" نفس المرجع ص : 181. إذن فالكبت Refoulement، هو الذي يمنع اللاشعور من التحول إلى شعور. والمقاومة Rèsistance، هي الرفض الذي يعبر عنه الشخص إزاء التصريح برغباته اللاشعورية"وهكذا فإن مفهومنا للاشعور مستنبط من نظرية الكبت، كل ما هو مكبوت

فهو بالنسبة إلينا يعادل اللاشعور" نفس المرجع ونفس الصفحة. إلا أن هناك حالات معينة يمكن أن تصبح شعورية وتستطيع الإنفلات من سلطة الكبت والمقاومة، إنها حالات توجد في مرحلة تدعى : ماقبل الشعور Prèconscient. أما الحالات المكبوتة التي لم تستطع الوصول إلى منطقة ماقبل الشعور فسوف تظل لاشعورية نحن إذن أمام ثلاثة مفاهيم أساسية : الشعور، وما قبل الشعور، واللاشعور، فماهي طبيعة العلاقة القائمة بين هذه المكونات الثلاثة، وكيف تشتغل فيما بينها ليتشكل السلوك؟.

لشعور يمثل سطح الجهاز النفسي وهو أقرب إلى الواقع، وله علاقة صميمية بالأنا، والأنا هو جانب من شخصية الفرد يتكون بالتدريج انطلاقا من الاتصال الذي يقيمه الطفل مع العالم الخارجي، ويتقوى الأنا بازدياد عمر الفرد وازدياد التعلم والتربية، وكذا الخبرات التي تقدمها الحياة اليومية. إن الأنا تسلك حسب مبدأ الواقع، وتريد أن تكيف الشخصية مع متطلبات الواقع الاجتماعي بالخصوص. إذن فالشعور لا يمكن أن يجد له متنفسا إلا في مجال الأنا، إذ هي التي تجعل من الوقائع النفسية حالات مشعور بها من طرف الشخص عندما يدرك، أو يفكر، أو يتصور، أو يعمل، أو يمارس تمثلات أو سلوكات معينة. ولكن الأنا لا تمثل إلا جزءا بسيطا من شخصية الفرد، لأن الوقائع النفسية أغلبها لا يصل إلى سطح الشعور، إن الحالات التي لم تتحقق على مستوى الشعور هي عبارة عن رغبات ليبيدية Libido أي جنسية ذات طبيعة بيولوجية، وهذه الرغبات والغرائز التي لم تشبع واقعيا هي ما يسمى بالهو Le ça باعتباره مجموعة من الغرائز الجنسية يسلك حسب مبدأ اللذة، هدفه العمل على إشباع هذه الغرائز بغض النظر عن القيم الاجتماعية التي يفرضها الواقع الخارجي. هكذا يدخل الهو في صراع مع الأنا، لأن الهو يسير حسب مبدأ اللذة بينما تسير الأنا حسب مبدأ الواقع، بمعنى أن اللذة تدخل في صراع مع الواقع، إذ تضطر الأنا إلى استخدام مجموعة من الميكانيزمات مثل الكبت والمقاومة والتبرير والإسقاط والإعلاء والتعويض والتهرب ....الخ. لقمع هذه الغرائز وعدم السماح لها بأن تطفو على سطح الشعور. وبذلك تظل مكبوتة في اللاشعور، إن الأنا تريد أن تضفي على الهو والغرائز تأثير العالم الخارجي، وأن تستبدل مبدأ اللذة بمبدأ الواقع، فالأنا

تمثل ما نسميه بالعقل والحكمة، أما الهو فهو على العكس من ذلك تهيمن عليه الغرائز. الأنا تصارع الهو لأنهما متناقضان مبدئيا، ولكن هذا التناقض على مستوى المبدأ(اللذة ضد الواقع) غير كاف لتفسير الصراع النفسي الحادث بين الغرائز البيولوجية ومع الأنا : ذلك أن الأنا إذا سمحت لهذه الغرائز بالتحقق بفعل قوتها وعنفها فإنها ستتلقى عقابا من طرف (الضمير). إن الضمير الأخلاقي (القيم العليا والمبادئ المثلى والمقدسة عند مجتمع ما) يتدخل لزجر الأنا وتوبيخها عن طريق ما يسمى (بتأنيب الضمير) و(الشعور بالذنب) إذا ما سمحت الأنا لغرائز الهو بالخروج إلى الواقع. إن هذا الضمير الأخلاقي الذي يقوم بوظيفة عقاب الأنا هو ما يسمى بالأنا الأعلى Le surmoi. إن علاقة الهو والأنا والأنا الأعلى فيما بينها هي التي تكون بمجموعها ما يسمى بالجهاز النفسي. وهذا الجهاز لا ينشأ دفعة واحدة بل ينشأ بالتدريج، فالطفل في الشهور أو السنين الأولى التي تلي مرحلة الولادة يسلك حسب مبدأ اللذة، أي أنه يعمل على إشباع غرائزه البيولوجية فقط. وإذا حرم من هذه اللذة يصرخ ويصيح، إن الأنا لم تظهر بعد عند الطفل، إذ بواسطة التربية والتجارب اليومية يبدأ في تعلم العديد من الأشياء وتبدأ أناه تنمو شيئا فشيئا، لذلك يحتاج الطفل إلى الرعاية من أجل حماية أناه. وعندما يصل الطفل إلى مرحلة الرشد تكون أناه قد اشتدت وتقوت بفعل التعلم والتنشئة الاجتماعية، ويبدأ في الضغط على رغباته ويتجنب إشباعها بالطرق الفطرية ويراعي قيم المجتمع، أي أنه يسلك حسب مبدإ الواقع. أما الأنا الأعلى فينشأ لدى الطفل نتيجة علاقته بوالديه والوسائل التي يستعملانها لتربيته، إما بالثواب وإما بالعقاب، فالأم أو الأب يثني على ابنه إذا امتثل لأوامره ويعاقبه إذا تمرد على ما طلب منه فعله، وبواسطة الثواب والعقاب يبدأ الطفل في تمثل القيم والمعايير التي يسير عليها المجتمع مثل قواعد الخير والشر والاحترام والحب والبغض.... وهكذا يبدأ في ممارسة هذه القيم على مستوى سلوكه الخاص، كقواعد النظافة، وستر العورة، والأكل باليد اليمنى. وأي خروج على هذه المعايير والقيم سيؤدي به إلى تلقي عقاب ذاتي يتمثل في تأنيب الضمير أو الشعور بالذنب. إن الشخص السوي هو الذي استطاع أن يحقق توازنا بين غرائز الهو البيولوجية وقيم المجتمع العليا، وهذا التوازن تقوم به الأنا عند الشخص. أي أن الأنا هي التي يجب أن تسمح بتحقيق نوع من

الإشباع لغرائز الهو مع إرضاء متطلبات الأنا الأعلى، بأن تعمل على إشباع الغرائز البيولوجية بطرق مقبولة اجتماعيا. إن أي خلل قد يقع في علاقة هذه الأجهزة الثلاثة سيؤدي حتما إلى المرض النفسي.

إذا أردنا أن نلخص ما سلف سنقول إن الجهاز النفسي يتكون من :

- الهو: وهو من طبيعة بيولوجية وعبارة عن مجموعة من الغرائز الجنسية، ويتحكم فيه منطق اللذة
- الأنا: وهي من طبيعة نفسية، وتراعي الانسجام بين الفرد والمجتمع، ويتحكم فيها منطق الواقع
- الأنا الأعلى: وهو من طبيعة أخلاقية اجتماعية، وظيفته هي عقاب أو جزاء الأنا إذا سمحت أو منعت تحقق غرائز الهو.

أما اللاشعور فهو كل ما قامت الأنا بالعمل على كبته ومقاومته، والشعور هو كل ما سمحت له الأنا بالتحقق الواقعي، والحالة الفاصلة بين الشعور واللاشعور هي التي تدعى ما قبل الشعور.

تجليات اللاشعور

إن القمع الذي تمارسه الأنا الأعلى على الهو، لا يؤدي حتما إلى موت الغرائز والرغبات بل يعمل فقط على ضبطها لمدة قد تطول أو تقصر، وعندما تعجز هذه الغرائز عن الوصول إلى منطقة الشعور، أي تحقيق مبدأ اللذة، فإنها تضطر إلى البحث عن طرق ملتوية تنفلت من رقابة الأنا، وهذه الطرق الملتوية هي التجليات اللاشعورية التي تعمل على تحقيق إشباع الغرائز بشكل غير مباشر، ويمكن حصر هذه التجليات العامة اللاشعورية في ثلاثة رئيسية :

1-الأفعال المعاقة : Les actes manquès

نقصد بالأفعال المعاقة عموما شيئان أساسيان : إما أخطاء الكلام (فلتات اللسان) وإما أخطاء الكتابة (زلات القلم). وتحدث الأفعال المعاقة عندما ينطق الشخص أويكتب كلمة بدل كلمة أخرى، ليست هي الكلمة الأصلية التي كان يريد قولها او كتابتها، وقد تحدث الأفعال المعاقة بطريقة معاكسة أي حين نسمع أو نقرأ، فنسمع كلمة من جملة نطق بها المتكلم ليست هي اللمة الأصلية في خطابه، أو حين نقرأ كلمة بدل كلمة أخرى هي سطر من كتاب أو رسالة.

هناك سلسلة أخرى من الظواهر تدخل في إطار الأفعال المعاقة، مثل النسيان الذي يكون مزمنا أو مؤقتا، كأن ننسى مثلا اسما معروفا، أي يستعصي استرجاعه بسهولة لكننا ننتهي إلى تذكره فيما بعد، ويمكن أن تضيف سلسلة ثالثة من الأفعال المعاقة تتمثل في خسارة اللحظة المرغوب فيها كأن نعجز عن العثور على شيء ما سبق أن وضعناه في مكان محدد، وقد يكون هذا الشيء الذي نبحث عنه بين أيدينا. (المفاتيح مثلا) عن الأفعال المعاقة ليست أفعالا عبثية أو عرضية تخضع للصدفة ولكنها أفعال لها دلالة ومعنى، إن الفعل المعاق بتعبير فرويد Freud هو" ظاهرة نفسية كاملة لها هدف خاص تماما كظاهرة لها محتواها ودلالتها الخاصيتين" فما هي دلالة الأفعال المعاقة على المستوى السيكولوجي؟.

يلاحظ فرويد أن الفعل المعاق هو نتاج للتدخل الحاصل بين قصدين اثنين : أحدهما إرادة إخفاء قصد باطني، وثانيهما محاولة إبراز قصد مضاد للقصد الأول. ولتوضيح هذا التداخل يأتي فرويد بمثال الوزير الذي أراد أن يقول "فتحت الجلسة" فقال بدل ذلك "رفعت الجلسة" لأن كان يعلم مسبقا أن هذا الاجتماع لن يأتي بأية نتيجة "القصد الأول" ولكنه رغم ذلك حاول إبراز العزم على عقد الجلسة "القصد الثاني"، وهكذا استطاع القصد الأول أن يعبر عن نفسه على شكل "فلتة اللسان" ووقع اختلال في الخطاب، ذلك أن القصد المكبوت يتمكن من الظهور رغما عن الشخص : إما بتغيير القصد المعلن أو بالاختلاط معه وإما بأخذ مكانه: هذا هو ميكانيزم فلتة اللسان.

إذن فالأفعال المعاقة عبارة عن تداخل بين قصدين : أحدهما يمارس عليه الكبت ويلقى به في اللاشعور، وثانيهما يتم الإعلان عنه والتصريح به على مستوى الشعور. ولكن القصد المكبوت يتمكن من الخروج بشكل غير كامل، أي يصل إلى منتصف الطريق لأنه لا يظهر في وضوح تام، إذ يلجأ لإلى إلحاق الخلل في القصد المعلن وذلك بواسطة قلب المعنى في الخطاب، وهكذا ينتهي الأمر باللاشعور إلى إيجاد متنفس له عن طريق الدفع بالقصد المكبوت إلى إيقاع الخلل على مستوى الخطاب، وبذلك يتمكن من التجلي على مستوى ضئيل من الشعور : إن الفعل المعاق هو أحد تجليات اللاشعور.

2-الحلم : Le réve

بدأ الاهتمام بالحلم عندما تم اكتشاف بعض الأعراض عند المصابين بالأمراض العصبية، وتبين ان تلك الأعراض لها معنى. ونتيجة للتشابه بين هذه الأعراض الملاحظة عند المصابين وبين الحلم، انصب البحث على ميكانيزم الحلم وآليات اشتغاله وكذا محاولة تأويله.

إن تأويل الحلم يعني البحث عن المعنى الخفي أي استخراج الدلالة المنطقية لمضمون الحلم انطلاقا من اللامعنى والاضطراب الذي يظهر به. ولهذا يمكن أن نتساءل في البداية : ما هو الحلم؟ يجيب فرويد عن هذا السؤال بأننا لا نملك حاليا أي تعريف لمفهوم الحلم، وما يمكن فعله هو البحث عن

الخصائص العامة التي تشترك فيها جميع الأحلام رغم اختلاف مضامينها. حين نتأمل الحلم يتبين لنا أنه مرتبط بالنوم، لذا يمكن أن ننتقل مباشرة إلى التساؤل عن معنى النوم لأنه هو المجال الذي يجري فيه الحلم. والنوم يعني "الحالة التي يكون فيها النائم غير راغب في معرفة أي شيء عن العالم الخارجي، ومصلحته تكمن في الانسحاب كلية من هذا العالم" والرغبة في الانسحاب من العالم تعني إرادة العودة إلى عالم هادئ يخلو من كل التأثيرات الخارجية، إنه حنين للعودة إلى رحم الأم. وحينما نتفحص الشروط التي يتم فيها النوم نجدها مشابهة للشروط التي يوجد فيها الجنين في الرحم وهي : الظلمة والحرارة وغياب التأثيرات الخارجية، ومعظم الناس عندما ينامون يتكومون في شكل منحني، أي يتخذون الوضع الذي يكون عليه الجنين في بطن أمه، هذا يعني أن النوم هو طموح للعودة إلى مرحلة ما قبل الولادة، وكأن الإنسان قد قذف به إلى هذا العالم دون إرادته. إن النوم كمجال يجري فيه الحلم يدل على أنه ليس من طبيعة فيزيولوجية، لأنه لا يخضع لتأثيرات الجسم بشكل مباشر ولا يخضع للتأثيرات الفيزيائية الواردة من العالم الخارجي : الحلم من طبيعة سيكولوجية لأنه ليست له علاقة مباشرة بالواقع، أي أنه يفلت من رقابة الأنا التي تخضع جميع التمثلات لمبدإ الواقع وهذا الإفلات التي يحققه الحلم خارج الواقع هو محاولة لإشباع غرائز معينة تم إحباطها واقعيا ومن ثم يتشكل مضمون الحلم بصيغة غير مفهومة منطقيا أي مشوهة، لكي لا يضبط الإشباع الغريزي من طرف الرقابة. فأحداث الحلم لا تربطها علاقة منطقية تبنى على مفهومي الزمان والمكان بل يختلط فيها الزمان والمكان، وينتفي منها مفهوم السببية. إن الأحداث التي يراها النائم ليس فيها لاحق وسابق، أي تفتقر للعلاقة العلية، لذلك يصعب تذكر الأحلام وروايتها، إذن فالحلم هو استجابة لمنبه نفسي، أولنقل إنه استجابة لغريزة معينة، وتحقيق تلك الغريزة هو الذي يشكل مضمون الحلم، ونتيجة لهذا التحقيق يتم تجنب انقطاع النوم، بمعنى أن الغريزة أثناء اندفاعها ستؤدي -لولا الحلم- إلى إيقاظ النائم لأنها تبحث عن الإشباع وهكذا يتبين لنا أن الحلم هو الذي يحرس النوم، لأنه يسهر على استمراره حين يوفر للغرائز إمكانية الإشباع.

الأحلام مثلها مثل الأفعال المعاقة، هي محاولة التوفيق بين نزعتين متضادتين : الرغبة في الإعلان عن شيء ما مع الإيمان بعكسه في الأفعال المعاقة، والرغبة في النوم مع تحقيق الإشباع الغريزي في الأحلام. إن الأفعال المعاقة والأحلام هي تعبيرات لا شعورية عن رغبات أحبطتها الأنا على مستوى الواقع.

3- العصاب : La Nevrose

العصاب عبارة عن فكرة متطفلة، تفرض نفسها على سلوك العصابي وهي غالبا ما تكون تافهة، وتتميز بالتكرار في أوقات معينة، وبذلك فهي تشبه الطقوس. وهناك أنواع من العصابات مثل : عصاب الهستيريا، وعصاب القلق، وعصاب الوسواس. وتشترك هذه العصابات في كونها تعبيرات لا شعورية يقوم بها الفرد ضدا على إرادته، وغالبا ما تبدو عبثية وخالية من أي معنى، إنها حالات مرضية تختلف حدتها من نوع إلى نوع آخر، إذ يجد المريض نفسه عرضة لحالات أو نوبات أو سلوكات مفروضة عليه ولا يستطيع الانفكاك والتخلص منها رغم محاولاته العديدة، ولكن هذه المحاولات تنتهي دائما إلى الفشل أمام قوة الأعراض المرضية التي تتحكم في سلوك العصابي. إن ما يميز الأعراض العصابية هو المبالغة في الفعل والسلوك، كشدة الحرص على النظافة والاغتسال الدائم رغم عدم وجود ما يبرر ذلك، وقد تظهر هذه الأعراض في طقوس النوم، كمراقبة أشياء معينة داخل الغرفة قبل إطفاء الإنارة، كالتأكد من غلق الباب أو وضع بعض الأشياء في أماكن خاصة وفي جهات محددة ويجب أن تتخذ أوضاعا معينة، وهذه هي بعض الخصائص العامة التي تميز عصاب الوسواس، وقد تتجلى أعراض عصابية أخرى في شكل قلق مجهول الأسباب، أو في أسباب تافهة، مثلا العصابي الذي يقضي نهاره كاملا في حالة غضب لأنه تخلف عن موعد ما أو لأنه لم يلحق بالقطار أو الحافلة وانطلقت قبل وصوله. وقد تتجلى الأعراض العصابية أيضا في الشخصية الهستيرية، وتتميز بنوبات محددة، كالإغماء والتعصب، والصراخ، أوالكلام، حيث يسقط المريض في حالات نصف الوعي لكي يسترد قواه المنهوكة بعد مرور هذه النوبات.

إذن فالعصاب مثله مثل الأحلام والأفعال المعاقة هو حل لاشعوري لصراع نفسي بين الأنا والهو، هذا الحل اتخذ شكل أعراض مرضيةلا تخضع لمنطق مفهوم من أجل الإفلات من الرقابة التي يفرضها الأنا على الغرائز، لكن تحليل هذه الأعراض العصابية وكذا الأحلام بالاعتماد على الاستبطان كمنهج وتقنية يستخدم التحليل النفسي يؤدي إلى الكشف عن جذورها وينزع عنها القناع الذي يخفي حقيقتها.إن هذه الأعراض عبارة عن تحقق لرغبات مكبوتة ولكن خارج الشعور، أي خارج مجال الأنا ولهذا السبب يصعب التخلص من هذه الأعراض رغم إرادة العصابي وعزمه على ذلك لأن الأنا عاجزة عن ضبط الجذور الغريزية لهذه الأعراض والتعرف على نوعيتها.

نخلص اعتمادا على ما يقوله أحد التخصصين في التحليل النفسي وهو إسحاق رمزي في كتابه"علم النفس الفردي" يمكن أن نستنتج أن مذهب فرويد قد يعتبر من المذاهب التي وقفت ضد "جفاف المذهب العقلي الحديث" بمعنى أن فرويد دعا صراحة إلى الاهتمام بالعاطفة والوجدان، وكأن الاعتماد على العقل وحده وبالتالي المنطق والفكر الخالص كل ذلك لم يصل بعلماء النفس إلى حيث أرادوا الذهاب أي إدراك الحقيقة، ولهذا قد نكون مدعوين إلي تبني أسلوب آخر متمثل في الحدس والإدراك المباشر ومن هنا "كان الوجدان عند فرويد فكرة كمية متنقلة قابلة للزيادة والنقصان، نصطبغ بها العقد والذكريات اصطباغا يختلف في الدرجة والتناسق وتنتشر انتشارا متباينا على العمليات العقلية".

التيار البناء التكويني

يمثل التيار البنائي التكويني توجها نظريا ومنهجيا متميزا داخل الحقل السيكولوجي نظرا لغنى وتنوع الدراسات الميدانية التي قام بها أقطابه وفي مقدمتهم مؤسسة جان بياجي Jean piaget ، إذ تمكن هذا الأخير من معالجة عدة إشكالات سيكولوجية تهم طبيعة النمو الفكري لدى الطفل ، خلص منها إلى إرساء مبادئ عامة لآليات قواعده لدى هذا الأخير بالإضافة إلى تحديد أهم العوامل المتحكمة فيه .

لقد ارتأى بياجي أن تطور ذكاء الطفل يمر من طابعه العملي إلى طابعه الصوري مبرزا أهمية العلاقة الجدلية بين الذات العارفة وموضوع المعرفة في ذلك التطور.

إلى أي حد تفوق بياجي بأطروحته البنائية التكوينية في إيجاد الأجوبة المقنعة للإشكاليات المطروحة داخل حقل علم النفس ، وبشكل أخص ما يهم منها جوانب النمو المعرفي لدى الطفل وعوامله الأساسية ؟ .

ينبغي التنبيه، منذ البداية، إلى مسألة أساسية تتعلق بالصعوبات الكبيرة التي تواجه كل من يريد أن يقارب السيكولوجية التكوينية سواء في كليتها أو في بعض أبعادها، وشهادتنا في ذلك تعدد الميادين التي تناولها مؤسسوا هذا التيار الجديد في علم النفس وأهم هذه الميادين : البيولوجيا ، والفلسفة والسيكولوجيا ، والمنطق والإبستمولوجيا، لذلك فإن مقاربتنا لهذا التيار تقتضي الوقوف عند المقومات الأساسية التي تأسس عليها ويتعلق الأمر بثلاثة مقومات وهي :

المقوم الابستمولوجي ، والمقوم البيولوجي ، والمقوم المنطقي الرياضي.

I – <u>المقومات الأساسية للتيار البنائي التكويني</u> :

1 – <u>المقوم الابستيمولوجي</u> : إن اهتمام بياجي بتاريخ العلوم، وبأشكال التفكير

العلمي. قاده إلى تبني مقاربة جديدة حول طبيعة المعرفة وارتقائها . وتتجلى هذه المقاربة في اعتبار المعرفة سيرورة تتحول وتتطور باستمرار ، وليست كحالة ثابتة استاتيكية جاهزة ، وهذا ما جعله يرفض كل النظريات السابقة عليه ، يقول في هذا الإطار في كتابه " السيكولوجيا والابستمولوجيا ص: 7، " إن المسلمة الأساسية التي كانت تحكم الإبستيمولوجيات التقليدية تكمن في كون المعرفة واقعة وليست سيرورة (...) إن ما هو مكتسب فهو مكتسب ويمكن دراسته استاتيكيا" انطلاقا مما تقدم، نقول بأن بياجي دشن بحق فهما جديدا للمعرفة ، أخرجها من القداسة الجاهزة ، وجعلها تتجدد باستمرار، والمطلوب بالنسبة إليه هو دراسة هذا التجديد وتحليله، يقول بياجي ، نفس المرجع ، ص: 8 ، " وإذا كانت كل معرفة هي دائمة التحول، وتقوم على الانتقال من معرفة أقل إلى معرفة أكثر اكتمالا وفعالية ، فإنه من الواضح ، أن الأمر يتعلق بمعرفة هذا التحول وتحليله بأكثر مما يمكن من الدقة".

بناء على ما سبق نقول مع Greco بأن " الابستمولوجيا التكوينية ساهمت عند بياجي في تحديد مكانة السيكولوجيا باعتبارها ميدانا للبحث في العقل، وميدان البحث التكويني وأخيرا ميدانا للبحث في التصرف La conduite في كليته ".

2 – **المقوم البيولوجي** : تبين من خلال المقوم الإبستيمولوجي ، والذي يعتبر بالأساس تكوينيا، أن المعرفة تتطور باستمرار ، ودراسة هذا التطور تقتضي البحث عن الجذور الأولية لهذه المعرفة ، وبلغة بياجي ذلك " أن النظريات السيكولوجية للذكاء تربط بين النظريات البيولوجية ونظريات المعرفة بشكل عام".

Piaget la psychologie de l'intelligence p : 18.

بمعنى أن بياجي كان منشغلا بتحديد القواعد البيولوجية التي تتأسس عليها المعرفة ، وهذا الطرح ، لم ينتبه إليه غيره من علماء النفس ، إذ ما دام الإنسان كائنا بيولوجيا ، فإنه لا يشغل المعارف بالاعتماد على العقل فقط بل على الجسم أيضا حيث تنطلق جميع التطورات التي يعرفها ، يقول بياجي في هذا الإطار " إن مسألة العلاقة

بين العقل والتنظيم البيولوجي تطرح نفسها بالضرورة في كل دراسة تتوخى البحث في ميلاد الذكاء " Piaget : la naissance de l'intelligence chez l'enfant,. Paris 1977, p 8.

وبذلك شكلت البيولوجيا إطارا مرجعيا صلبا تبناه بياجي في تفسيراته المرتبطة بالسيكولوجيا ، إذ يؤكد على أن " كل تفسير سيكولوجي ينتهي عاجلا أو آجلا بالتركيز على البيولوجيا " نفس المرجع ص : 9.

ففي البيولوجيا نتحدث عن النمو انطلاقا من الوراثة ، فكذلك في علم النفس ، يجوز أن نستخدم التكوين ، إذ الأمر يتعلق بالنسبة لبياجي بدراسة العلاقة بين البنية والتكون ، أي دراسة العمليات العقلية باعتبارها عمليات داخلية ، كما هو الشأن في البيولوجيا حيث يحدث النمو من داخل البنية ذاتها ، بمعنى إن التطور أساسه داخلي . ولفهم التطور العملياتي استوحى بياجي ترسانة من المفاهيم من البيولوجيا، كالتوازن الذي يعتبر النواة الأساسية التي تدور حولها كل المفاهيم التي تؤسس للسيكولوجيا البياجيسية كالتكيف ، والتنظيم ، والضبط الذاتي، والاستيعاب ، والتلاؤم والتوازن.

فالعوامل المعيارية التي تقود النمو العقلي تطابق ما نجده في البيولوجيا فالكائن الحي يبحث دائما عن التوازن ونفس الشيء بالنسبة للذات المعرفية، فهي دائما تبحث عن التوازن المعرفي يقول بياجي " يعتبر الذكاء شكلا من التوازن الذي تصبو إليه كل البنيات وتبحث عنه أثناء تكوينها انطلاقا من الإدراك والعادة والميكانزمات الحسية الحركية الأولية " . Piaget la psychologie de l'intelligence p : 13.

فالذكاء عند بياجي ليس ملكة وإنما سيرورة وظيفية بين الأشكال العليا للتفكير ومجموع الأنماط الأولية للتكيف المعرفي أو الحركي بمعنى " إنه تكيف دهني أكثر دفعا" نفس المرجع والصفحة.

ونخلص بما قاله بياجي " إن الوظائف الأكثر عامة للعضوية : التنظيم والتكيف، والاستيعاب ، والاحتفاظ ، والاستباق ، والضبط والتوازن ، توجد جميعها في الميدان المعرفي وتلعب فيه دورا مركزيا " . Piaget « Biologie et connaissance » 1967 , p. 297.

3 – **المقوم المنطقي – الرياضي** :

يقول بياجي " إن المنطق مرآة التفكير وليس العكس، وهذه الفكرة هي التي قادتنا إلى دراسة تكون العمليات عند الطفل" théorie du langage , théories d'apprentissage (le débat entre J. piaget et N. chomsty) 1979, p: 60

" ويقول أيضا " المنطق أكسيوماتيك العقل حيث سيكولوجيا الذكاء تشكل العلم التجريبي الملائم " نفس المرجع ، ص : 34 .

انطلاقا من هذين النصين ، يتضح أن بياجي انصرف إلى دراسة التطور العقلي باعتباره تطورا للعمليات المنطقية الرياضية، ويتجلى هذا التوجه بوضوح، من خلال انشغاله الكبير بالجواب على سؤال مهم يتعلق بمراحل تطور المعرفة العلمية ، ومن أجل إثبات هذا القول، كون بياجي اهتم بالأساس بالبحث في المفاهيم الفيزيائية (كالسرعة ، والزمان والمكان ...) وفي المفاهيم المنطقية الرياضية (التصنيف ، والتسلسل ، والاحتفاظ، والتضمين ، والعدد ، والتعدي ...) بعبارة أكثر وضوحا ، انصرف إلى البحث في التفكير المنطقي الرياضية الذي يحكم تفاعل الطفل مع العالم الخارجي، وعندما نقول التفاعل ، فإن الأشخاص لا دخل لهم في بناء هذا التفكير. فالنمو العقلي هو بالأساس نمو للتنظيمات البنائية ، والتي تتميز أشكالها بكونها تقترب تدريجيا من تلك التي يدرسها كل من المنطق والرياضيات ، وحدوث النمو يتم بفعل المتطلبات الداخلية للتوازن، وهنا يكمن اشتغال السيكولوجيا ، أي تحليل حالات التوازن يقول بياجي " ففي الوقت الذي ترتبط فيه السيكولوجيا بتحليل حالات التوازن النهائية

للتفكير ، يوجد هناك ، ولكن ليس بشكل موازٍ ، تطابق بين هذه المعرفة التجريبية والمنطق الرياضي " نفس المرجع ص : 37.

بمعنى " إن المعارف الفيزيائية والتجريبية لا يمكن لها أن تتشكل دون إطار منطقي ... رياضي ". Piaget « Biologie et connaissance » 1967 , p. 473

وقد شكل تواجد البعد المنطقي والرياضي في نظرية بياجي بوجه عام ، مصدر العديد من الانتقادات والمناقشات مع العلم أن بياجي ومعاونيه ما فتئوا يؤكدون باستمرار على أن البنيات العملياتية بنيات سيكولوجية طبيعية بالأساس تتكون تدريجيا مع النمو.

II – خصائص التيار البنائي التكويني:

1 – التنظيم المعرفي وفاعلية الذات .

إن الأساس الذي انطلق منه بياجي في مشروعه السيكولوجي يتمثل في أن تفاعل الفرد مع محيطه العام لا يمكن حصره واختزاله فقط داخل خطاطة مقيدة S→R (مثير ← استجابة) بل يجب تحديد وتعيين الاشتغال الذهني الداخلي الذي يقوم به الفرد قبل أن ينتج الاستجابة ومن هنا يصر بياجي على أن تصبح الخطاطة ثلاثية الأقطاب ، تستدمج الذات الفاعلة النشيطة S→O →R (المثير الذات ← المشتغلة ← الاستجابة) وبتقديمه لهذه الخطاطة يكون بياجي قد دشن منعطفا جديدا داخل الحقل السيكولوجي ، قوامه إضفاء الطابع الإيجابي والفعال على الذات السيكولوجية وبالتالي تحريرها من التصورات الميكانيكية التي سجنتها فيها السلوكية أي أصبحت ذاتا فاعلة ومشتغلة والسؤال الذي يطرح نفسه: ما هي طبيعة هذا الاشتغال؟

يمكن القول منذ البداية ، بأن بياجي ظل وفيا، إلى حد ما ، للتقليد الوظيفاني الذي طبع الحقل السيكولوجي منذ فترة طويلة ، وخاصة في أعماله الأولى، وقد برز هذا التقليد بشكل واضح في كتابه " ميلاد الذكاء لدى الطفل". la naissance de

l'intelligence chez l'enfant, Delachaux et Niestte 1936.

وذلك من خلال اعتماده على مجموعة من الوظائف الثابتة لفهم وتفسير تفاعل الرضيع مع محيطه . كالاستيعاب والتلاؤم والتوازن والتكيف والتنظيم، إلا أن هذا التوجه سيختفي في أعماله اللاحقة وينخرط بياجي بشكل صريح في الاتجاه البنيوي التكويني المعرفي، ويصبح دور هذه الوظائف هو ضمان المرور من حالة معينة إلى أخرى أكثر تطورا من السابقة، وهذا ما جعل سيكولوجيته توسم بالبنائية التكوينية ، ويعود ارتباط بياجي الضمني بالبعد الوظيفي للمعرفة إلى الهاجس الذي ظل يراوده، والمتمثل في إيجاد مخرج لمسألة الانتقال من البيولوجي إلى السيكولوجي، وهذا ما جعل هذا البعد حاضرا في مرحلة الذكاء الحسي ــ الحركي، باعتبارها جسرا يربط البيولوجي بالسيكولوجي ، وما يعزز هذا القول، ما ذهبت إليه انهلدر INHELDER "بأن وحدة الاشتغال تتكشف في الخطاطة التي عمل بياجي على توضيحها في دراسته المتعلقة بالذكاء الحسي – الحركي " Le cheminement des découvertes de l'enfant, Paris 1992, p:15.

فالرضيع يولد وهو يتوفر على خطاطة رد الفعل Schème de réflexion ومنها تتطور جميع الخطاطات المعرفية.

ويقول بياجي " تعتبر الخطاطة مفهوما تطبيقيا وليست مفهوما للتفكير "

Piaget « apprentissage et connaissance PUF 1959, p : 43

وبهذا المعنى ، إن الخطاطة هي الفعل، إذ . من يقول الخطاطة يقول فعل الذات، والمعرفة عند بياجي ، لا تعني نسخ الواقع كما هو ، وإنما تعني ، ممارسة الفعل عليه لتحويله، وذلك لفهمه وفق أنسقة التحويل التي ترتبط بها هذه الأفعال.

يقول بياجي " كل تصرف سواء كان فعلا متجها نحو العالم الخارجي أو كان فعلا مستدخلا ، أي تفكيرا ، يعد نوعا من التكيف أو بعبارة أكثر دقة ، نوعا من إعادة التكيف " Piaget : la psychologie de l'intelligence p :10.

والتكيف يقود نحو التوازن . ذلك أن الفرد يتجه في سلوكه دوما إلى التوازن وإعادة التوازن ، لكي يحصل تكيفه مع الظروف الجديدة وهذا التكيف يستدعي قبل كل شيء من الذات مجهودا كبيرا ، بمعنى إن الذات تشتغل لتحقيق التكيف، وذلك عن طريق عمليتي الاستيعاب والتلاؤم ، فالوظيفة الأولى للمعرفة تتمثل في الاستيعاب المرتبط بتفاعل الذات مع الشيء الموضوع، فالاستيعاب مصطلح وظيفي، وبذلك فالاستيعاب المعرفي هو استدماج وظيفي، يتم عبر خطاطات الفعل يقول بياجي " فالاستيعاب الذهني هو استدماج للأشياء في خطاطات الفعل، وهذه الخطاطات ما هي إلا شبكة من الأفعال القابلة للتكرار بشكل نشيط " نفس المرجع ، ص : 14.

فالخطاطة هي مجموعة الخصائص المبنية التي تعمل على تعميم الفعل، أي تلك الخصائص التي تتيح إما تكرار نفس الفعل أو تطبيقه على محتويات جديدة ، فالخطاطة تحتمل أمرين : إما أن تطبق على مواضيع معروفة تعامل معها الطفل، وكون بصددها خطاطة أي استيعاب بسيط، وإما أن تطبق على مواضيع جديدة وهذا يقتضي : إما توسيع الخطاطة الأصلية أو بناء خطاطة جديدة ، وذلك بتدخل سيرورة ثانية وهي التلاؤم . فالتلاؤم يعمل على تعديل الخطاطة الأصلية أو ما يمكن أن يسميه ببنية السلوك السابقة يقول بياجي " نسمي التلاؤم كل تحويل في الخطاطات الاستيعابية تحت تأثير الوضعيات الخارجية (أي الوسط) التي تطبق فيها، ليس هناك استيعاب بدون تلاؤم (سابق أو حالي) . وأيضا ليس هناك تلاؤم بدون استيعاب "

Piaget « Biologie et connaissance » , p. 25

فمعظم الخطاطات تبنى تدريجيا ، وتتمايز فيما بينها، وذلك بفعل التلاؤم مع الوضعيات التي تخضع للتحويل ، وبذلك نقول ، بأن ، التلاؤم هو عملية تفرض على الفرد أن يغير من فعله تبعا لمتطلبات الواقع. وتبعا لهذا يمكن القول بأن الاستيعاب والتلاؤم سيرورتان متلازمتان تعملان على خلق توازن بين الذات والموضوع وبذلك فتطور معرفة الطفل، يرجع إلى اصطدامه بموضوعات جديدة التي تفرض عليه خلق

خطاطات سلوكية جديدة، أو توسيع مجال خطاطات قديمة لتي تصبح قابلة للتطبيق على موضوعات متنوعة ومشكلات مختلفة ، إذ " بواسطة سيرورة استيعاب تلاؤم يطور الطفل قدراته الفكرية " .

Pierre HIGELE : construire le raisonnement chez les enfants , RETZ, 1997 , P.129.

2 – مراحل النمو المعرفي لدى الطفل.

يقول VERGRLAND " لا يمكننا أن نفهم اشتغال الذات في وضعية ، إذا لم نتوفر على تحليل سجل السلوكات والتمثلات الممكنة وتدرجها المتفق عليه ، أي على وصف أمين للنمو".

Question vives de la psychologgie du développement Bulletin de psychologie N° 390 . P : 451.

انطلاقا من هذا النص يتضح أنه لا يمكن إطلاقا فهم التنظيم المعرفي الذي تقوم به الذات أثناء تفاعلها مع الواقع الخارجي دون معرفة ووصف المرحلة التي توجد فيها هذه الذات على مستوى نموها المعرفي ، وهذا ما نلمسه بعمق في التيار التكويني البناتي البياجوي حيث يعتبر التقطيع المرحلي للنمو المعرفي خاصية تميز المشروع السيكولوجي البياجوي ، فتصوره لهذا التقطيع يختلف بعمق عن غيره من السيكولوجيين الذين اعتمدوا في تحديد هذا التقطيع على خاصية واحدة أو عدد جد محدود من الخصائص كما هو الحال عند **جزل وفرويد ووالون** . وبياجي يتميز عن هؤلاء وغيرهم بكونه وضع شروطا ضرورية ينبغي مراعاتها عند الحديث عن مفهوم المرحلة، ونشير هنا إلى أننا لن نهتم بتفصيل دقيق لكل الخصائص التي تميز كل مرحلة على حدا، لأن هذا الموضوع يعتبر شاسعا وخصبا ، سنكتفي بإبراز بعض الخصائص التى تميز كل مرحلة وقبل ذلك سنعرض للشروط التي حددها بياجي لمفهوم المرحلة وهي :

1 – يجب أن يكون التتالي بين المراحل ثابت . فلا تظهر خاصية قبل أخرى، بمعنى ، إن خاصية ما ، لا يمكن لها أن تظهر قبل خاصية أخرى عند مجموعة من الأطفال، وبعد هذه الخاصية عند أطفال آخرين " فالمراحل الكبرى توجد جميعها في ترتيب ثابت" . Piaget : « Biologie et connaissance » , p. 36.

2 – كل مرحلة ينبغي أن تتميز ببنية المجموعة structure d'ensemble ذلك أن ظهور سلوك جديد لا يكفي وحده للحديث عن الانتقال إلى مرحلة جديدة ، فالأمر يتطلب ظهور مجموعة من السلوكات التي تنتظم في بنية . ذلك أن " تعريف كل مرحلة لا يرتبط بخاصية مسيطرة وإنما يرتبط ببنية المجموعة التي تميز كل السلوكات الجديدة الخاصة لهذه المرحلة" نفس المرجع ، ص : 36.

3 – تتميز المراحل بكونها مندمجة بعضها في بعض ، فالبنيات التي تنشأ في مرحلة معينة تصبح جزءا مندمجا مع بنيات المرحلة الموالية: ففكرة بناء الموضوع الدائم التي تنشأ في مستوى الذكاء الحسي ــ الحركي تصبح عنصرا مندمجا مع أفكار الاحتفاظ بالمادة التي تنتسب إلى مرحلة العمليات الإجرائية : " فظهور السلوكات الجديدة خلال مرحلة معينة يعبر دوما عن التطور الحاصل للسلوكات التي تميز المراحل السابقة ".

Piaget : la naissance de l'intelligence chez l'enfant, P : 335.

إن الاستمرارية هي الطابع المميز بكل السلوكات التي تتميز بها المراحل المختلفة . ولم يكن توصل بياجي إلى تحديد مراحل النمو المعرفي سهلا أو بشكل اعتباطي أو تلقائي ، وإنما بعد سلسلة من الدراسات الميدانية ، ولم يستقر رأيه على أربعة مراحل إلا بعد جهد جهيد، ومحاولات عدة وذلك لحرصه على تحقيق الدقة العملية ، والمراحل التي انتهى بياجي على التمييز فيما بينها على مستوى تفكير الطفل هي على الشكل التالي: مرحلة الذكاء الحسي – الحركي (من الولادة إلى سنتين تقريبا) مرحلة التفكير الماقبل – العملياتي (من سنتين إلى 7 سنوات) مرحلة العمليات الملموسة (من 7 إلى 12 سنة) ومرحلة العمليات المجردة (من 12 سنة فما فوق) .

- مرحلة الذكاء الحسي - الحركي.

يمتد الذكاء الحسي - الحركي من الميلاد إلى سنتين تقريبا ، إنه ذكاء يتميز بكونه بدون تفكير أو تمثل، وبدون لغة، وأيضا بدون مفاهيم أي تنقصه الوظيفة الرمزية يقول بياجي " فالمرحلة السابقة عن اللغة نسميها المرحلة الحسية ــ الحركة لأنه لا وجود خلالها للوظيفة الرمزية" . Piaget : la psychologie de l'enfant 1967 , p : 7.

يبلور الطفل خلال هذه المرحلة مجموعة من البنيات المعرفية التحتية التي لها أهميتها ودورها على مستوى الانبناءات الإداركية والعقلانية اللاحقة، يقول بياجي في نفس المرجع " فالانبناءات ترتكز في هذه المرحلة على الإدراكات والحركات وذلك بفعل التنسيق الحسي ــ الحركي للأفعال، دون أن يتدخل التمثل ولا التفكير" ص : 8 فالذكاء الحسي - الحركي يرتبط بقوة بالحضور المباشر للأشياء والأشخاص وهذا ما يجعله يوسم بكون تطبيقي - عملي لا يسعى إلى البحث عن حقيقة الأشياء وإنما إلى النجاح في الفعل وفي هذا الإطار يقول بياجي : " يتجه الفعل في الذكاء الحسي ــ الحركي إلى الإشباع على المستوى العملي أي إلى إنجاح الفعل وليس إلى المعرفة كما هي : إنه لا يبحث عن التفسير ولا عن التصنيف ولا عن السببية (...) فالذكاء الحسي - الحركي معيشي. Intélligence Vécue وليس تفكيريا " نفس المرجع، ص: 131.

ب - **مرحلة الذكاء الماقبل - العملياتي:**

فإذا كان الطفل/ الرضيع في المرحلة السابقة غير قادر على التعبير عن أفكاره، وهذا ما يجعل تقييم نموه المعرفي يتم على أساس الطريقة التي يدرك بها العالم الخارجي والوسائل التي يوظفها في هذا الإدراك (السمع ، البصر، اللمس، الشم، الذوق) فإنه في هذه المرحلة يبدأ الطفل في تمثل الأشياء ويقدر على استحضارها ذهنيا. وهذه القدرة على الاستحضار تشكل منعطفا حاسما في نموه المعرفي، إذ تجعله

يتحرر من المتطلبات الحسية ـ الحركية، بمعنى تتأسس لديه الوظيفة الرمزية والتي تعني " الوظيفة التعميمية للتمثل" Piaget : la psychologie de l'enfant , p : 41.

ويفضل بياجي استعمال الوظيفة السيميائية la fonction sémantique لتعيين الاشتغالات المرتبطة بمجموعة من الدوال المتمايزة وهذه الوظيفة تقوم على المحاكاة واللعب الرمزي والصورة الذهنية واللغة ، وهذه الأدوات هي التي تلعب دورا حاسما في التمايز بين الدال والمدلول وبالتالي تأسيس التنسيق بين الدوال والمدلولات .

Piaget : la formation du symbole chez l'enfant , p : 7.

نقول باختصار شديد، بأن هذه المرحلة الما قبل العملياتية – تتوزع إلى مرحلتين جزئيتين : الأولى تمتد من عامين إلى أربعة أعوام وتتسم بالاستعمال الأنوي الصرف للغة، وبالتبعية الشبه المطلقة للإدراك في حل المشكلات المطروحة . والثانية تمتد من أربعة إلى سبعة أعوام، وتأخذ اللغة هنا الطابع الاجتماعي ، أي تقوم على التواصل، ويظهر التفكير الحدسي ، عموما نقول بأن الطفل في هذه المرحلة يتمثل ذهنيا الأشياء الغائبة عن مجاله الإدراكي . ويستطيع توظيفها في تجاربه عند الضرورة ، لكن هذا التوظيف يبقى محصورا في الزمان والمكان، ومنذ الآن ، يقدر الطفل على التنظيم الذهني للأشياء عبر مختلف التوليفات ، إلا أن ما يسطر عليه في هذه المرحلة هو الآنوية فهو يتصرف وفق وجهة نظره الخاصة فقط ولا يولي أي اهتمام لوجهة نظر الآخرين .

ج – مرحلة العمليات الملموسة:

يصبح الطفل ، في هذه المرحلة ، قادرا على إنجاز العمليات التي لها علاقة مباشرة بالأشياء الملموسة، فكلمة " ملموسة" لا تعني بالضرورة قيام الطفل بلمس الأشياء الواقعية لحل المسائل مثلا، وإنما تعني الملاحظة المباشرة للأشياء يقول بياجي في هذا الإطار " تسمى بالملموسة لأنها توظف مباشرة على الأشياء وليس بعد على الفرضيات المقدمة لفظيا". Piaget : la psychologie de l'enfant , p : 79.

فالفعل الممارس على الأشياء لا يأخذ طابع عملياتي إلا إذا كان قابلا للاستخدام والعكس والتنسيق في أنظمة عامة ، فهذه الخصائص لا تتعلق بطفل معين أي كفرد وإنما يشترك بصددها جميع الأطفال من نفس السن . ومن هنا يمكن أن نقول بأن أهم ما يميز هذه المرحلة هو اكتساب الطفل للعكسية التي تعد الشرط الأساسي والضروري للعملية ذلك أن " العمليات تقتضي إذن التحويلات العكسية " نفس المرجع، ص : 76. فاكتساب العكسية يعتبر منعطفا هاما وحاسما في تفكير الطفل، لأنها تعطي له دينامية جديدة ، إذ يصبح تفكيرا عملياتيا . ولذلك نقول بأن هذه المرحلة يعرف بلورة متزامنة لخطاطات الاحتفاظ والبنيات المنطقية الرياضية للفئات Les classes والعلاقات relations والعدد، وعلى هذا الأساس نقول بأن العمليات الملموسة تتعلق قبل كل شيء بالقدرة على التضييف وإدراك التسلسلات والعلاقات العكسية والاحتفاظ.

د – **مرحلة العمليات المجردة:**

لم يعد تفكير الطفل محصورا في إطار محيطه المباشر كما هو الشأن في المرحلة السابقة، إذ أصبح قادرا على استحضار الشروط الزمانية لمشكلة مطروحة أمامه (الماضي والحاضر والمستقبل)، ويصبح بإمكانه طرح الفرضيات وهذا يوحي بأن التفكير بتخلص من الفعل المباشر وبتعبير بياجي " يصبح التفكير خالصا أي مستقلا عن الفعل" Piaget : la psychologie de l'intelligence, p :159.

إضافة إلى ما سبق يستطيع الطفل استخلاص الخلاصات وفهم النظريات العامة وكذا التوليف بين هذه النظريات لحل المسائل مثلا، بمعنى إنه يستطيع أن يبني أنساقا أو نظريات ، ويلخص بياجي أهم ما يميز هذه المرحلة بالقول " في هذه المرحلة يمكن القول بتمايز الشكل عن المحتوى "في هذه المرحلة يمكن القول بتمايز الشكل عن المحتوى وتصبح الذات قادرة على التفكير الصحيح حول القضايا أو المقترحات التي لم تؤسس بشأنها بعد أي اعتقاد بمعنى إنها تطرح بصددها فرضيات بسيطة : أي تصبح

قدرة على استخلاص النتائج الضرورية من المعطيات الممكنة وهذا ما يشكل جانب التفكير الفرضي – الاستنباطي أو الصوري " . Piaget : la psychologie de l'enfant , p : 105.

يتضح من خلال ما أوردناه بخصوص التيار البنائي التكويني وتصوره للمعرفة بشكل عام ، أنه يعمل على تفسير نمو البنيات المعرفية بمفاهيم عامة تنتج بالأساس عن ميكانيزمين سيكولوجين هما : الاستيعاب والتلاؤم ، وذلك بفعل تجاوزهما المستمر والدائم لوضعيات اللاتوازن المعرفي لإعادة بناء التوازن ، وبالتالي بنينة المعارف في صيغ جديدة وشاملة . وقد أثار هذا التيار السيكولوجي نقاشات عدة على جميع المستويات المعرفية وساهم بعمق في ظهور اتجاهات وتيارات جديدة على الساحة السيكولوجية وأخص بالذكر هنا تيار البنائيين الجدد والتيار المعرفي حيث عملا على تجاوز قصورات التيار البياجوي والمتمثلة أساسا في عدم تناوله بالبحث والتقصي أشكال الهندسة المعرفية الداخلية لذهن الفرد ومستويات اشتغالها خلال مواجهة لمختلف المواضيع كحل المسائل مثلا.